تطور الحياة والإنسان في نظرية برجسون

خادم حسين إلهي بخش

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، سيدنا ونبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج منهجهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن هنري برجسون يعتبر أحد الأركان الأربعة ـ كارل ماركس، وسيجموند فرويد، وإميل دور كهايم ـ للفكر الغربي الحديث، الذي سطا على الفكر في العالم الإسلامي، وعلى أحد هؤلاء الأربعة يبني كل من يريد نقض الثوابت الإسلامية، بل نقض الثوابت البشرية جمعاء.

وهذا ما قادني إلى دراسة فكر الرجل، دراسة علمية منهجية من كل جوانبها، فقرأت جل كتبه، ولم أعر اهتماماً يذكر لمن كتب عنه، لذا لم أتطرق إلى نقد الناقدين ولا مدح المادحين.

والمفكرون تجاه أفكار برجسون فيما خَلَّفَه من أبحاث ثلاثة أصناف:

الصنف الأول:

مادح يصل بالرجل وبأفكاره عنان السماء، لا يرتضي له إلا رئاسة الفكر الفلسفي الحديث، ولا شك أن الإعجاب بالإنسان يحجب عن المؤلف كل مساوئه، ولا يرى فيه إلا النموذج الأعلى للاقتداء، بغضّ النظر عما قدمه للبشر من فكر صالح أو فكر فاسد، فهؤلاء يعجبهم كل جديد، حتى ولو كان سُماً مهلكاً.

الصنف الثاني:

درس الفكر الغربي، وشعر منه بانزعاج، ولكنه لا يملك القدرة الكافية على نخل الأفكار وغربلتها، من حيث الصحة والفساد، لذلك لم يصل إلى النقد المطلوب، ولا استطاع تقديم البديل المفيد للبشر.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الصنف الثالث:

لديه الدراية الكافية بالفكر الغربي العام، ولكنه لم يطلع على الفكر الخاص الذي يريد نقده، فجاء نقده مبهماً، غير واضح المعالِم، ولم يمنع نفسه من أن ينقل نقد غيره بحروفه وجُمَلِه وينسبه إلى نفسه، دون الإشارة إلى المصدر الذي نقل عنه.

ولا شك أن هذا الصنف عملة نادرة، كندرة الكبريت الأحمر، فمن هؤلاء الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه الشهير **كواشف زيوف**، فقد لخّص فكر برجسون فقال: "ثنائي في فلسفته، يرى أن في العالم اتجاهين متعارضين، هما الحياة والمادة، فالحياة تصعد وتخلق وتجاهد خلال المادة، وتسمو عليها بالزيادة في الخصوبة ودقة التركيب، أما المادة فمثقلة هابطة مقيدة، إلى غير ذلك من الآراء"(١).

كل ذلك قادني إلى دراسة فكر الرجل، دراسة علمية منهجية من كل جوانبها، فقرأت جل كتبه، ولا أدعي الكمال فيما قدمت من جهد، سلواي أني بذلت الوسع وحاولت التعرّف على الحق، فما كان صواباً فهو من الله عزوجل وما كان خطأً فهو منّي ومن الشيطان، أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: برجسون حياته وعصره:

١- ولادته وطفولته:

تتفق المصادر التي بحثت عن حياة هنري برجسون أنه وُلِد في حي بسكال في باريس بفرنسا في ١٨ أكتوبر ١٨٥٩م من أبوين يهوديين، حَمَل والده الجنسيةَ الفرنسية بالاتفاق.

وتنسب بعضُ المصادر جنسية أمه إلى الإنجليز، ويقوي هذا التوجه مكثها الطويل في إيرلندا، وتَلَقِّيْهَا تربية إنجليزية(٢).

ولد برجسون في جو استقر فيه إنكار وجود الله، من الباحثين والمكتشفين في العلوم الطبيعية،

١- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٣٤٧، والنص بِجُمَلِهِ وحروفه منقول من **الموسوعة العربية الميسرة**، لمجموعة مؤلفين بإشراف محمد شفيق غربال، طبعة دار الشعب، القاهرة، صورة لطبعة ١٩٦٥م، ص ٣٤٥، ولم يشر الشيخ إلى المصدر الذي أخذ منه، بل قدم هذه الخلاصة على أنها خلاصته في دراسته لبرجسون، ولا شك أن ذلك عمل غير مقبول في الأطروحات العلمية.

٢- انظر للتفصيل: زكريا إبراهيم، **نوابغ الفكر الغربي ٣ برجسون**، طبعة دار المعارف، دون تحديد السنة أو المكان أو المطبعة، ص ١٧.

وذلك لمعاداةِ الكنيسة للعلم المادي وللعلماء المكتشفين في مجالات العلوم الطبيعية التجريبية.

ويعود هذا العداء الذي ورثه برجسون إلى ما قبل ولادته بثلاثة قرون، حين قال كوبر نيكوس[٣] وجردانوبرونو[٤] وجاليليو[٥] بكروية الأرض، فاستنتاجهم العلمي هزّ الكنيسة هزّاً، إذ كان تصور رجال الكنيسة أن ما توصل إليه الثلاثة يعارض ما تدين به الكنيسة. في ضوء نصوص التوراة التي بين أيديهم، فإنها تقول باستواء الأرض، وإنها مركز الكون، وإن الإنسان مركز الوجود.

٢- نشأته العلمية:

تلقى برجسون تعليمه الأوَّلي في مدرسة ليسيه كوندرسيه، فما أن أتم تعليمه التأسيسي حتى التحق بمعهد المعلمين العالي، وكانت علامات النبوغ العلمي قد ظهرت على نتائجه التحصيلية، ولاسيما في الرياضيات والعلوم الكونية، فقد فاز بجائزة الرياضيات لمجلة **حوليات الرياضة** سنة ١٨٧٧م.

ويبدو أن المعهد بطرف خفي وَجَّه برجسون إلى تلقي العلوم الأدبية، على الرغم من ميوله الفطرية إلى الرياضيات والعلوم، لقدرته الفائقة على التحليل وتفسير المظاهر المختلفة، حتى تنسجم مع التوجه العام الذي يُسَيِّرُ الحياة الأوربية كلها.

هذا وقد نال برجسون شهادة معهد المعلمين (اجرجاسيون) عام ١٨٨١م، وأَهّلَتْه هذه الشهادة إلى أن يدلي دَلوه في القضايا الفلسفية المعاصرة، كقضية الزمان والمكان والاستمرار (الدوام اللانهائي).

٣- عمله:

ما أن تخرج برجسون في معهد المعلمين عام ١٨٨١م، حتى عُيِّن كأستاذ للفلسفة في بليسيه انجيه (Angers) ، وبدأت شهرته من هذا الحين تتعدى فرنسا، ولِنَيْله الترقيةَ عام ١٨٨٣م نقل إلى ليسيه كليرمون Clermont-Ferrand .

وظل الرجل يرتقي في سلم العلم درجة درجة حتى نال درجة الدكتوراه، من جامعة السوربون عام ١٨٨٩م، وكان عنوان رسالته "رسالة في معطيات الشعور المباشرة"، وأضاف إليها رسالة فرعية عَنْوَنَهَا بـ: "فكرة المحل عند أرسطو" بيّن فيها سقطات أرسطو بأدلة نفسية.

وقد عادت عليه الرسالتان بصِيتٍ عم فرنسا كلها. وبدأت الأنظار تتجه إليه في الأوساط الجامعية، وكان للصحافة الفرنسية الدور الأكبر في إبراز شخصيته.

٣- عالم فلكي بولندي عاش بين عامي ١٤٧٣ـ١٥٤٣م، انظر للتفصيل: **الموسوعة العربية الميسرة**، ص ١٤٩٥.

٤- فيلسوف إيطالي عاش بين عامي ١٥٤٨ ـ ١٦٠٠م، انظر للتفصيل: المصدر السابق، ص ٣٦٣.

٥- عالم فلكي إيطالي عاش بين عامي ١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م، انظر للتفصيل: المصدر السابق، ص ٥٩٧.

لم يحل التدريس بين برجسون وبين مواصلة البحث، فجاءت باكورة إنتاجه باسم "حريتنا البشرية وصلتها بالآلية الكونية"، ويعني بذلك: هل البشر مخيّرون أو مسيّرون في أعمالهم في الحياة العاجلة؟ وأتبعها في سنة ١٨٩٧م ببحثٍ أخذ من وقته أكثر من خمس سنوات، ووَسَمَه باسم "المادة والذاكرة"(٦).

٤- مكانته بين أقرانه ومناصبه:

انتخِب برجسون سنة ١٩٠١م عضواً بأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بـ: College de France، ثم عضواً بالأكاديمية الفرنسية، اعترافا بجهوده في خدمة العلم والمجتمع، فذاع صِيتُه أكثر وبدأت الطلبات تنهال عليه لإلقاء المحاضرات في دول العالم.

أضف إلى ذلك أن الرجل شارك في الدفاع عن بلده ـ فرنسا ـ في الحرب العالمية الأولى، حين لَبَّى دعوة حكومته بالقيام بمهمة رسمية في أسبانيا وأميريكا، أملا في بذل الجهود العالمية في إعادة السِلْم إلى بلاده أولاً، وإلى العالم ثانيا.

وما أن وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨م، وتألفت جمعية الأمم، وتكونت لِجَانُها المتعددة، حتى عُرِضَ الأمرُ على برجسون في سنة ١٩١٩م ليرأس لجنة التعاون الفكري التابعة لها، فبادر بإجابة الطلب، فأدار جلساتها المتكررة بحنكة وبصيرة، وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥م، حين أجبرته صحته على التنازل عن رئاسة هذه اللجنة، ولعل جائزة نوبل في الآداب التي نالها سنة ١٩٢٨م أدخلت إليه بعض السلوان، ورفعت عنه كابوس المرض ـ ولو لبعض الوقت ـ الذي ألزمه الفراش(٧).

٥- مؤلفاته:

يجزم الباحثون أن أول مؤلفات برجسون الرئيسة، ظهر على الملأ جاء تحت عنوان **الزمان والإرادة الحرة**، وقد ناقش فيه فكرة الزمان والمكان وصلتهما بدوام الحياة، وكان كتابه هذا توطئة لأطروحة الدكتوراه.

وظهر كتابه **المادة والذاكرة** سنة ١٨٩٧م، حاول فيه برجسون الجمع بين حرية العمل الذي يقوم به الإنسان وبين الآلية الكونية التي تَسِيْرُ عليها المادة، ويبدو من كتابه **الضحك** المختص بالهزل والهزء، أنه جاء كردّ فعل لرفض الجمهور أسلوبه المعقد في الكتاب السابق، فقدم كتابه **الضحك** سنة

٦- انظر للتفصيل: المصدر السابق، ص ٣٤٥.

٧- انظر للتفصيل: زكريا إبراهيم، **نوابغ الفكر الغربي ٣ برجسون**، ص ٢٤ – ٣١.

١٩٠٤م، وحلل فيه ظاهرة الضحك، وبيّن أسبابها والعوامل التي تَكْمُنُ وراء هذا الانفعال، وتقدم إلى الجمهور بما يتناسب مع عقليته(٨).

وظهر كتابه **التطور الخالق** الذي أكسبه المكانة العالمية بين العامة والعلماء سنة ١٩٠٧م، وحاول فيه حل مشكلة الحياة، وبداية ظهورها، والمراحل التي مرت بها، حتى استقرت على ما هي عليه الآن، ولاقى كلامه في هذا الكتاب صدى في النفوس الممتلئة غيظاً ضد الكنيسة، فنال الشهرة المطلوبة(٩).

ومما زاد في شهرته أن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت كتب برجسون ضمن قائمة الكتب الممنوعة كَنسياً، وفي سنة ١٩١٤م حرمت قراءة كتاب **التطور الخالق**؛ لأنه يقود ـ في رأيها ـ إلى الإلحاد وإنكار الخَلْقِ المباشر من الله عزوجل.

وظهر كتابه **معنى الحرب** سنة ١٩١٥م، وذلك عقب نشوب الحرب العالمية الأولى، التي كانت فرنسا أولى ضحاياها، وحاول فيه تحليل ظاهرة الاعتداء والعوامل التي تكمن وراءها، وفيه يُسَلِّي نفسه بانتصار القيم والقوى الأخلاقية.

أما كتابه **الطاقة الروحية** فهو عبارة عن محاضرات ألقاها في العديد من الجمعيات والجامعات، وأبحاثٍ نشرها في العديد من الدوريات، وبحوث شارك بها في بعض الندوات.

ويبدو من تصدير الكتاب بمحاضرة هُوكسَلِي التي ألقاها في جامعة برمنجهام في ٢٩ مايو ١٩١١م ولاؤه التام لمنهج ذلك العصر، الذي جزم بأن الله لم يخلق الخلق بجميع فئاته، وإنما جاء الخلق عن طريق التطور، في فترات متلاحقة امتدت إلى ملايين السنين(١٠).

وجاء أشهر كتبه **منبعا الأخلاق والدين** الذي ظهر سنة ١٩٣٢م، ليضع ختم الاعتماد على المنهج الذي سعى برجسون إلى بثّه بين الناس، بعُلَبٍ مختلفةِ الألوان والأذواق. إلا أنها جميعا تهدف إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الذي تراه في هذا البحث وغيره مما كتبته عن برجسون وفكره.

٦- أسلوبه في أبحاثه:

يعد العلماء هنري برجسون من المكثرين في الكتابة، يملك خيالاً خصبا وقدرة على التحليل قَلَّ ما أُعْطِيَ غيره مثلَها، وبحثه عن **المادة والذاكرة** خير مثالٍ على ذلك، ويتمتع الرجل بسعة الاطلاع على

٨- وقد قرأته من ألفه إلى يائه.

٩- وقد قرأته من ألفه إلى يائه واستشهدت به في فصل: "برجسون و تطور الحياة".

١٠- قد قرأت كتابه هذا كاملاً، واستشهدت به في مواضع من أبحاثي.

الحضارات القديمة، كالحضارة الهندوسية والفرعونية والبوذية والكنفوشية... ويمتاز فكره بأمور أهمها:

أ- كثرة التكرار، و لربما كرر المعنى الواحد في الصفحة الواحدة، ولا شك أن ذلك غير محمود في الأبحاث والمقالات العلمية.

ب- يسعى كل باحث أن يقدم المعلومة إلى القارئ بصيغة الجزم دون تردد، إلا أن ذلك شبه مفقود في أبحاث برجسون.

ت- يحترم برجسون الرأي المخالف ويلتزم الأدب عند النقد، وما رأيت له جملة جرح بها شعور غيره، ونقده في الأعم الأغلب للبناء وإتمام النظرية لا للنقد فحسب، لذلك نال إعجاب أعدائه قبل أصدقائه.

ث- أسلوبه في عرض القضايا الفلسفية اليونانية غامض نسبياً، ولا يستطيع القارئ العادي أن ينال منه بغيته، وما كتبه في قضايا علم النفس أيسر منالاً، يستطيع القارئ نيل المطلوب منه بجهد يسير، أما ما كتبه عن القضايا الغيبية وأمور الدين والأخلاق فإن الوضوح ميزتُه، وإقناع القارئ بضرب الأمثلة واضحٌ فيها وضوح حرارة الشمس، لكل من يملك الإحساس بالحرارة.

ج- لم يرفع برجسون قلمه للكتابة في موضوع إلا بعد أن اطلع على كل جزئية من جزئياته المتاحة، وربما استغرق منه ذلك عقداً من عمره، لذلك تجده يتحدث في العمق والأساسيات، وكتابه **التطور الخالق** خير مثالٍ لذلك.

٧- **وفاته:**

عُمِّرَ برجسون طويلاً، فقد لَبَّى داعي الأجل في ٤ يناير سنة ١٩٤١م، وكان عمره إحدى وثمانين سنة، وتختلف الرواية في الديانة التي مات عليها، فمن قائل بموته على الإلحاد ونكران الإله، وقائل بموته على النصرانية الكاثوليكية.

ويبدو من تتبع الملابسات أن موته كان على الديانة النصرانية الكاثوليكية، رغم سعيه الحثيث في العقود الستة الأخيرة من عمره على نشر الإلحاد.

٨- **عصر برجسون:**

يُعَدُّ العصر الذي عاش فيه برجسون نهاية الصراع بين العلوم التجريبية والعلوم المنزّلة من عند الله عز وجل، في الكتب الإلهية الممثلة في الكنيسة ورجالها في الغرب يعد فقدانها مركز الأمر والنهي، ولم تعد تملك من توجيه الناس شيئاً، سوى أن تطردهم من رضوان البابا، وضم الكتب التي تخالفها إلى قائمة الكتب الممنوعة التي يحرم قراءتها.

٩- **مميزات عصر برجسون:**

يمكن حصر مميزات هذا العصر فيما يلي:

١- حصر العلم والمعرفة في التجربة والمعمل المادي.

٢- إنكار المعلومات التي لا تدخل في أنبوب المعمل.

٣- فصل الدين عن الحياة، وانتشار العلمانية بين جميع طبقات الشعب، وفقدان الكنيسة مصدرية التوجيه لممارسة أعمال الحياة اليومية.

٤- انحصرت أعمال رجال الكنيسة في إقامة طقوس يوم الأحد.

٥- إنكار المعتقدات الغيبية بجميع صورها وأشكالها، بدءاً من وجود الله عز وجل وانتهاءً بوجود يوم العرض والحساب والجنة والنار، ومن يثبتها منهم يحاول إثباتها في هذه الحياة، في صور يمكن قبولها عقلاً.

٦- تقديم آراء ومقترحات تصل إلى درجة الخَبَال، تحت شعار العلم التجريبي، الذي سيتطور لاحقاً، فَيَصِل ـ في رأيهم ـ إلى تلك الغاية المتخيلة المنشودة، كتطور حياة الإنسان لتصبح دائمة خالدة، فينتفي الموت إلى الأبد، وقد ناقشت ذلك في مبحث: "برجسون والنظريات الممهّدة للتطور".

٧- استسلام الكنيسة وقبول الانهزام العام أمام العلم المادي ومن يرتدي رداءه.

٨- توجيه المراكز العلمية والعلماء البارزين من قبل اليهودية العالمية، التي تتبنى خطة نزع فكرة الله من عقول غير اليهود، تحقيقاً للمبدأ الذي نصت عليه في برتوكولات حكماء صهيون: "لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله وعلى الأخوة والإنسانية...، إن الناس المحكومين بمثل هذا الإيمان، سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم ''هيئاتهم الدينية'' وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة، تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض، وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية"(١١).

٩- إنشاء نظريات باسم العلم تناقض الموروث الكنسي ـ بغضّ النظر عن صحتها وفسادها ـ وتَحُلّ محله، لسدّ الفراغ الذي أحدثه النقض، تقول **بروتوكولات حكماء صهيون**: "لاحظوا هنا أن

١١- **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون**، ترجمة محمد خليفة التونسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م، ص ١٢٠.

نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ''غير اليهودي'' سيكون واضحاً لنا على التأكيد"(١٢).

١٠- كانت الصحافة هي التي تمسك أزمة التوجيه والإرشاد، بعد أن سلبته من الكنيسة ورجالها، من الرهبان والقساوسة، وقد تمكّن اليهود من الهيمنة عليها واحتكار ممارساتها، بالتأسيس للصحف الجديدة حيناً، وبشراء المشتهر منها أحياناً أخرى، وما تزال كذلك حتى هذا اليوم، وازداد الوضع سوءاً بتعدد وسائل الإعلام: من الراديو وشريط الكاسيت والقنوات الفضائية والإنترنت، وكلها مملوكة لليهودية العالمية، بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشر.

١١- تطبيق الاستدلال التجريبي على سائر القضايا بصورة قطعية، وإقناع الناس بأن حكمه هو النهائي، وأن كل دليل لا يقوم على التجربة فهو دليل باطل، لا يجوز قبوله ولا الركون إليه.

المبحث الثاني: برجسون والنظريات الممهّدة للتطور:

ممهّدات التطور:

يجزم الباحثون جميعا، أن برجسون لم ينل شهرته العالمية إلا بعد أن نشر كتابه **التطور الخالق**، الذي يعد آخر الدعائم التي وضعت ختم التوثيق على نظرية التطور الداروينية، مع بعض الاختلاف في المراحل التي مرت بها الحياة، حتى وصلت إلى الإنسان واستقرت فيه.

فلم يكن برجسون بدعاً في باب الفكر الفلسفي، فقد عرض القضايا التي عرضها الفلاسفة قبله وسيعرضها من يأتي بعده، وأعظم هذه القضايا قضية أصل الحياة، وكيف وجدت، ومن موجدها الحقيقي، وما صلتها بالمادة الجامدة، وما مكانة العمل الإنساني فيها، وهل الإنسان مجبرٌ على الأداء أو مخيّر بين الرفض والامتثال؟

حاول برجسون أن يحل معضلة أصل الحياة، ومنبعها الأساسي، بتقديم نظريات ممهّدة تقود إلى نظرية التطور الكاشفة في نظره عن أصل الحياة، ومن أهم هذه الممهدات:

١- نظرية نبذ المعرفة الميتافيزيقية:

المعرفة الميتافيزيقية هي الوصول إلى كنه الأشياء وحقيقتها، من غير إدخال المعلومة في أنبوب المعمل، ولا شك أن هذا التعريف ينطبق على الدين أساساً، ويدخل غيرها فيه، مما يقدم المعرفة معتمدة على الفِراسة والإحساس الداخلي والشعور وما شابه ذلك.

١٢- المصدر السابق، ص ١١٢.

يرفض برجسون مثل فلاسفة المدرسة الاجتماعية الفرنسية الميتافيزيقيا، حتى وإن كانت تلك العلوم معتقدات توارثتها البشرية كابراً عن كابر، أو أحكاما عملية يختلف أداؤها من شخص إلى آخر ومن شعب إلى آخر. كل ذلك مرفوض عند الرجل، فبحثه ''المدخل إلى ميتافيزيقيا'' يدور حول هذا المحور.

أعظم ما في علوم الغيب هو المعتقدات، وتعد بمثابة الأساس للأحكام العلمية، ويجزم برجسون أنها من صنع الفلاسفة، لا دخل للوحي فيها، وأنهم هم المقدمون لها إلى العلماء المؤمنين بالغيب، "إن العقيدة التي تقدمها لنا نحن نعرفها، إنها خارجة من معملنا نحن الفلاسفة الذين صنعناها، وإنها لبضاعة قديمة جداً"(١٣).

ويبرز برجسون مسلك العالم الميتافيزيقي القديم المؤمن بالغيب بأنه قدم عقيدته إلى العالم التجريبي وعامة الناس، وقبلها الصنفان دون تردد؛ لأنها تسدّ فراغاً داخل نفسه، وأما العالم الفلسفي فلا يستطيع قبولها لأنه قادر على تقديم عقيدة مَرِنَةٍ تستطيع القَوْلَبَة مع واقع الحياة(١٤).

ويدعو الرجل إلى تعديل العقيدة، بناء على الرصد والمراقبة الداخلية في النفس البشرية، ويتفاءل بتقدم مثل هذا المنهج على المنهج التجريبي القائم في المعامل، "إن ذكَرْنا الواقعة فليس للتباهي بها، بل للتدليل على أن الرصد الداخلي قد يعلو، ويتقدم على المناهج التي يعتقد أنها أكثر فاعلية، أثبتنا أن العقيدة التي كانت يومئذ تعتبر مقدسة، تحتاج على الأقل إلى التعديل"(١٥).

ويسلك برجسون طريق الفرار في المحاضرة التي ألقاها تحت عنوان "الروح والجسد" فطرح تساؤلات الفطرة الرئيسة على الحضور، وتنكب الإجابة قائلا: "فأقول من أين جئنا؟ وماذا نفعل؟ وإلى أين نحن سائرون؟ وإذا كانت الفلسفة ليس لديها ما تجيب به على هذه الأسئلة ذات الاهتمام الحيوي، أو إذا كانت عاجزة عن توضيحها بصورة تدريجية، كما توضح مسألة من المسائل البيولوجية ''علم الحياة'' أو التاريخ، وإذا كانت لا تستطيع تفسيرها بواسطة تجربة يزداد عمقها، وبنظرة أكثر فأكثر دقة فيما خص الواقع، وإذا كانت ستكتفي بتأجيج الصراع بين الذين يؤكدون والذين ينفون الخلود، بواسطة براهين مستقاة من الجوهر الفرضي للنفس، أو الجسد"(١٦).

١٣- هنري برجسون، **الطاقة الروحية**، ترجمة: علي مقلد، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٤٠ وكتبها برجسون تحت عنوان "الروح والجسد" ونشرت في كتاب **المادية المعاصرة** تحت إشراف الدكتور غوستاف لوبون.

١٤- انظر: المصدر السابق، ص ٣٨.

١٥- المصدر السابق، ص ٤٨، ٤٩.

١٦- المصدر السابق، ص ٥٥.

يرفض الرجل الاعتراف باليوم الآخر وما يعقبه من الحساب والجزاء والجنة والنار والبقاء الأبدي الذي لا نهاية له، وانتفاء الموت إلى الأبد، كل ذلك مرفوض عند برجسون لأن العقل لا يسند ذلك، والعلم التجريبي لا يعترف به(١٧).

ويلمز الرجل معتقد المؤمن في الجنة، وما أعدّه الله لعباده من النعيم المثالي، إذ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، وأن أهلها يعودون شباباً فلا يهرمون، فيها زوجات من الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون...، وأن فيها أنهاراً من عسل وأنهاراً من لبن مصفى، وأن قصورها تجري من تحتها الأنهار قائلاً: "إننا نجيب في الفرضية المثالية: إنه من المستحيل تصور شيء ما في حال انعدام هذا الشيء بصورة كاملة"(١٨).

لم تسلم عقيدة فِراسة المؤمن "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله..."(١٩)، والاستخارة وما شابهها من الحالات، التي تستكشف بعض الأمور الغيبية بأمر الله من نقد برجسون، فقد كتب تحت عنوان **التعرف الخاطئ** قائلا: "هكذا تكون إذاً اضطرابات الإرادة، التي تتسبب بالتعرف (في التعرف) الخاطئ، بل إنها تشكل سببه الأساسي، أما السبب القريب فيجب البحث عنه في مكان آخر، في التداخل المتراكب بين الإرادة والذاكرة، إن التعرف الخاطئ ينتج بشكل طبيعي عن عمل هاتين الطاقتين، إذا تُرِكتا لقواهما الذاتية، ويحدث التعرف الخاطئ في كل لحظة إذا لم تمنع الإرادية النَزَّاعة دائماً إلى العمل"(٢٠).

مناقشة نبذ المعرفة الميتافيزيقية:

يكاد يتفق البشر جميعا بمختلف نزعاتهم ودياناتهم، أن الإنسان بعمومه يكتسب المعرفة عن طريقين: طريق التجربة وطريق الوحي.

الطريق الأول: طريق التجربة:

لا يمتنع الإنسان عن قبول ما يقدمه البشر من المعرفة عن طريق التجربة، وما يستنتجه الناس من معترك الحياة خلال مسيرة الإنسانية، ولا يختلف اثنان أن هذا الرافد يقدم المعرفة إلى البشر، وأن البشر يتقبلون هذه المعرفة دون نزاع، وقد قطعت البشرية شوطا عظيما خلال ثلاثمائة سنة الماضية في هذا المضمار،

١٧- المصدر السابق، ص ٥٥ - ٥٦، و ص ١٧٦.

١٨- المصدر السابق، ص ١٨١.

١٩- رواه الترمذي، **جامع الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجر، إشراف ومراجعة: الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، طبعة دار السلام، ط ٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٧٠٦.

٢٠- **الطاقة الروحية**، ص ١٤٠.

في شتى ميادين الحياة، ويَسَّرت للإنسان طرق معيشته، أسهل من ذي قبل، كما قدمت إليه سبل هدمه وفنائه بأيسر السبل وأسهل الوسائل.

فمن الأولى الثلاجة والغسالة والسيارة والطائرة والكهرباء...، ومن الثانية قنابل النابالم والمتفجرات والقنابل الذرية وقنابل الصوت...، وقد أقرّ الإسلام اكتساب المعرفة عن هذا الطريق، وحثّ عليه فيما يخدم البشرية ومن أبرز أدلة ذلك:

١- قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأهلها يؤبرون النخل، فقال عليه الصلاة والسلام مستفهما: "لو لم تفعلوا لصلح". وفهم الأنصار رضي الله عنهم من الاستفهام الامتناع والنهي، فتركوا التأبير، فجاء التمر شِيْصا لا نواة فيه، وقُدِّم إليه شيء من ذلك فقال مستغربا ''ما لنخلكم؟'' فبيّنوا له السبب، وأنهم فهموا من قوله النهي، فقال عليه الصلاة والسلام حاثًّا على التعامل بما اكتسبوه من التجربة: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"(٢١).

٢- خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر، يعترض عيراً لقريش، واستطاعت العير النفاذ بأخذ طريق الساحل دون اعتراض، وخرجت قريش لمحاربة المسلمين، وقد نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أول ماء في بدر يلي المدينة، فأشار عليه الحباب بن المنذر رضي الله عنه بالنزول عند آخر ماء في بدر وأن يغوروا الآبار التي خلفهم، نشرب ولا يشربون، خطة مبنية على تجارب الحروب، وقد امتثل لها عليه الصلاة والسلام(٢٢).

٣- في غزوة الخندق حين أحاطت الأحزاب المعادية بالمدينة، أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، وأن الفرس يتعاملون بمثل ذلك متى أحيط بمدنهم، فتبنى التجربة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، وأمر بحفر الخندق شمال غرب المدينة، وحفر مع أصحابه، فأخذ بتجربة الفرس وتبناها دون تردد(٢٣).

٤- جاء الأمر العام بالحثّ على استخراج المفيد من الأرض عن طريق التجارب وتقديمه إلى البشر وغيرهم من مخلوقات الله، فقد صحّ من قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يغرس غرسا،

٢١- **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله، إشراف ومراجعة: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، طبعة دار السلام، ط ٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٠٣٩.

٢٢- انظر تفصيل ذلك: صفي الرحمن المباركفوري، **روضة الأنوار في سيرة النبي المختار**، طبعة دار السلام، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١١٣.

٢٣- انظر للتفصيل: المصدر السابق ص ١٣٨.

أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة"(٢٤).

يتضح مما سبق أن الإسلام يحضّ على إجراء التجارب، وتبنى المعرفة المكتسبة عن طريقها، وقد خاضها عليه الصلاة والسلام قولاً وعملا، وأمر بالأخذ بها.

الطريق الثاني: طريق الوحي:

وهو إعلام الله رسوله بما فيه مصلحة البشر، فيبلغه الرسول إلى البشر، ويسمى ذلك أمر الله وشرعه، ويشمل جانبين من الحياة: المعتقدات والأحكام العملية.

وهذا الرافد المعرفي أدق وأحصن في تقديم المعلومات إلى البشر، لأن المخبر به هو الله عز وجل، ولأن المعرفة القادمة من هذا الجانب تأتي ممن خلق الكون ومظاهر الحياة المختلفة، وهو أعلم بما فيها من النافع والضار، لأكرم مخلوق خلقه بيده، وأسجد له ملائكته: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٢٥).

فالمعرفة القادمة من هذا الجانب، تلقتها البشرية منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض (آدم): ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢٦).

وقد ختم الوحي بآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وجاءت المعرفة عن طريقه في صورة أسس وقواعد عامة، حلت معضلات الحياة الماضية، وتحل المعضلات المعاصرة، وستحل ما يطرأ من معضلات في الحياة المستقبلية، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٢٧) وتَلَقِّى المعرفة عن هذا الطريق لا يختص بالإسلام والمسلمين، بل أنه رافد مشترك بين جميع الديانات الإلهية.

٢٤- **صحيح البخاري** المطبوع مع **فتح الباري** لابن حجر العسقلاني، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ج ٥، ص ٣.

٢٥- سورة ص، الآيات: ٧١- ٧٦.

٢٦- سورة البقرة، الآيتان: ٣١، ٣٢.

٢٧- سورة المائدة، الآية: ٣.

فها هي التوراة السامرية تقدم المعلومات في أول أسفارها **سفر التكوين** عن بداية الخلق فتقول:

١- البداية خلق الله السماوات والأرض، والأرض كانت مغمورة مستبحرة، ورياح الله هابة على وجه الماء، وقال الله يكون نوراً فكان نوراً، ونظر الله النور، وأفصل بين النور وبين الظلام، وسمى الله النور نهاراً، والظلام سُمي ليلاً، وكان ليلاً وكان نهاراً يوما واحدا(٢٨).

٢- وتقدم التوراة العبرية التي يعترف بها كل اليهود، معلومات عن تكوُّن السماء والأرض قائلة: "وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحاراً"(٢٩).

٣- ويقدم إنجيل لوقا حمل مريم بعيسى عليه السلام وسلام الملك جبريل عليها، وإخبارها أن الرب أنعم عليها: "وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل، اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داؤد اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مبارك أنت في النساء"(٣٠).

يتضح من النصوص السابقة، أن البشرية تبنت أخذ المعرفة من الوحي، وما يخبر الله به رسله ويشترط في أخذ المعرفة عن هذا الجانب صحة نسبته إلى الله عز وجل فمتى صحت النسبة وجب على الناس القبول والامتثال.

٢- نظرية المعرفة الحدسية:

بعد أن رفض برجسون كسب المعارف عن طريق الوحي، قدم بديلا لذلك يحل محله، فجاء في صورة نظريات تسدّ الفراغ، لأن البشرية تطلب سنداً لكل ما تقوم به من أعمال، فلا بد من وجود بديل بشري يستند إليه هذا الموروث القائم بينهم، فقدم لذلك نظرية استنباط المعارف وتحصيلها من الشعور الباطن، وأن قلة من الناس يستطيعون أخذ المعارف من هذا الرافد، وأن هذا العلم في بداية نموه، وسيتطور إلى حد يستطيع حل كل قضية لا يستطيع العلم التجريبي حلها، وأطلق على كل ذلك مصطلح "المعرفة الحدسية".

٢٨- التوراة السامرية **سفر التكوين** الإصحاح الأول، ترجمة الكاهن السامري: أبو الحسن إسحاق الصوري، مطبعة دار البيان، القاهرة، ط ١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣٥.

٢٩- **سفر التكوين**، الإصحاح الأول، فقرة ٩، ١٠.

٣٠- **كتاب العهد الجديد لربنا ومخلصنا يسوع المسيح، إنجيل لوقا**، الإ صحاح الأول، ضمن مجلد **الكتاب المقدس**، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دون تحديد المطبعة والمكان والسنة، فقرة ٣٦-٣٩، ص ٩٠.

ويصف الحدس بأنه التجربة الشعورية التي يحملها الإنسان داخل نفسه، وهو التواجد في الشيء ذاته بمجهود غير معملي، قوامه الاستدلال الذي يستخدم العناصر غير المادية، ويحاول الاقتراب من الأصل عن كثب، وذلك بسبر أغوار الحياة وجس نبضات النفس، بضرب من الكشف الروحي(٣١).

وتفترق المعرفة الحاصلة من المعامل التجريبية عند برجسون عن المعرفة الحاصلة عن الحدس، بأن الأولى تتميز بالثبات وعدم التغير، في حين الثانية تمتاز بالتغير الدائم وعدم الثبات، لذلك لا يمكن الإمساك بها، و يصعب الحصول عليها بسهولة بالعلوم المتاحة أمامنا الآن(٣٢).

مناقشة نظرية المعرفة الحدسية:

ما قاله برجسون عن تلقي المعرفة عن الحدس والشعور الباطن يعترضه أمور أهمها:

١- أن هذه المعرفة غير عامة، لا يحصل عليها كل البشر، ولا يشتركون جميعا في تحصيلها، رغم تساويهم في الوجوه التي تنبع منها في الظاهر، فإن كان برجسون يستطيع نيلها، فإن الملايين من أمثاله من البشر غير قادرين على تحصيلها، وما الذي يمنعني ويمنع عامة أفراد البشر من القول بأن ما قاله برجسون وَهْمٌ لا محل له من الواقع.

٢- لا تتساوى الناس في التجربة الشعورية، فربما تجربتي اختلفت عن تجربة زيد، ممن أمكنه خوض المعترك الحدسي، ولعل تصوف الهندوس والنصارى والمسلمين خير شاهد على هذا الاختلاف، فالتجربة الشعورية عند الهندوسي غير التجربة الشعورية عند النصراني، وتجربة الأخير غير تجربة المسلم.

فربما لا تجد أحداً وافق برجسون في المعلومات المكتسبة عن طريق الحدس، بما في ذلك أقرب تلاميذه إليه، لذا لا تجد اتفاقا يوحد بينهم فيما قاله برجسون، دعك من الاتفاق في عمق المعلومات ودقتها، بل خذ الظاهر والواضح تجد التنافر الذي يباعد بينهم، فمثلاً الجواب عن هذا السؤال: هل الله هو الحياة أو الحياة غير الله؟ ظل موضع جدال طوال حياة تلاميذ برجسون.

٣- يعترف برجسون بأن المعرفة الحدسية دائمة التغيير، وأن الثبات ليس من صفاتها، فبما أن الأمر تغير مستمر، فهل يمكن أن يشترك اثنان في إدراك التغيير في لحظة واحدة، فضلاً عن أن يشترك معهم من يماثلهم في طلب هذه المعرفة.

٣١- انظر: هنري برجسون، **المدخل إلى ميتافيزيقيا**، ترجمة: محمد علي أبو ريان، دار الجامعات الإسلامية، الإسكندرية، ط ٣، ١٩٧٤م، ص ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢.

٣٢- انظر: المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٤- ما قاله برجسون عن المعرفة الحدسية فيه هدم الموروث، وإقناع الناس بأنه زال عن الوجود اتباعاً لسنة التطور والتغيير، حتى لا ينتبه الناس إلى الهادمين فيعاقبوهم، بما ارتكبت أيديهم من الجرائم تجاه البشرية، وبذلك تضيع معالم الجريمة.

لم يختلف قول برجسون في المعرفة الحدسية عما قاله أميل دوركهايم في نظريته عن العقل الجمعي ـ فإنه شيء خارج عن عقول الأفراد، وليس هو مجموع عقولهم، ولا يشترط أن يكون موافقا لعقل أحد منهم ـ حتى يسلم من العقوبة والمقاضاة، فالمعرفة الحدسية لا يمكن الإمساك بها، كما أن العقل الجمعي وما يقوم به من الهدم والتخريب لا يمكن الإمساك به، فكلاهما يقدم الهدم دون أن يستطيع الناس الإمساك بالمجرم.

٥- يبدو ـ والله أعلم ـ أن الرجل قدم نظرية المعرفة الحدسية، ليسدّ الفراغ الذي أحدثه بإنكار المعرفة الميتافيزيقية، فلا بد من سداد تلك الخانة الفارغة، التي أحدثها إنكار المعرفة الميتافزيقية، لأن النفس الإنسانية تطلب ملأها، ولا تسمح بتركها فارغة دون امتلاء.

٣- نظرية دوام الحياة:

جزم برجسون في أطروحة الدكتوراه أن الإنسان يتركب من جسد خارجي ونفس (روح) تسكن داخل هذا المغلف، وأن النفس هي التي تحرك الإنسان بجسده الخارجي، فيقوم بأعمال الحياة المختلفة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، ويعطيها أسماء مختلفة مثل "الذات" و"أنا الداخلية" و"الحدس" و"الشعور" و"النفس"...

ويصفها بصفات الصيرورة والتغير والحرية والخلق المستمر ودوام الحياة، وأنها لا تكف عن التدفق والسيلان، "فالحياة النفسية تيار غير منقطع من التغيرات لا تقبل التجزئة وسيال متدفق من الحركات لا تقبل القسمة، وفي وسعنا ـ حسب قوله ـ أن نقول إن ديمومتنا لا تحتمل الرجعة إلى الماضي، أو تكرار ظروف بعينها، بل حياة جديدة مستمرة بلا انقطاع، وإبداع صور لم تكن موجودة من قبل"(٣٣).

وتصل الديمومة في نظر برجسون إلى التغلب على كل العوائق، وكل ضروب المقاومة، بما في ذلك الموت "ومن يدري فربما تستطيع الإنسانية يوما أن تتغلب على شتى العوائق، حتى الموت نفسه"(٣٤).

ويجزم بانفكاك حياة الفكر (حياة الروح) عن حياة الجسد، فيقول: "إن حياة الفكر لا يمكن أن

٣٣- H. Bergson: ***Essai sur Les Donnees Immediates le Conscience***, p. 98.

٣٤- انظر: زكريا إبراهيم، **نوابغ الفكر الغربي ٣ برجسون**، ص ١٧٤.

تكون نتيجة لحياة الجسد، بل إن كل الأمور تجري كما لو لم يكن الجسد إلا أداة يستخدمها الفكر، وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن الجسم والروح مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطا لا انفصام له"[٣٥].

وينتقد معتقد الحياة الدائمة بعد الموت، المبني على الوحي والعلوم الغيبية بسخرية تنبئ عن أنه مكلف بتقديم بديل للحياة الأبدية الأخروية، التي يعتقد الناس وجودها، وعليه أن يحصر الحياة بجميع صورها في هذه الحياة العاجلة "لأن الباعث الوحيد الذي يدعو إلى الاعتقاد بفناء الشعور بعد الموت، هو رؤية الجسم يفنى، ولا يكون لهذا الباعث من قيمة إذ كان استقلال جل الشعور إن لم يكن كله عن الجسم واقعة مرئية هي الأخرى، إننا حين نعالج مسألة البقاء على هذا النحو، فننزلها من القمم التي وضعتها فيها الميتافيزياء التقليدية، تتنازل ولا شك عن الحصول على حل قطعي دفعة واحدة. ولكن ماذا تريدون؟

إنه لا بد في الفلسفة من الاختيار بين طريقتين: طريقة الاستدلال العقلي المحض، الذي يرمي إلى نتيجة نهائية، لكنه لا يتكامل، لأنه يفترض لنفسه الكمال، وطريقة الملاحظة الصابرة، التي تؤدي إلى نتائج تقريبية فحسب، إلا أنها قابلة لأن تُصَححَ وتُكْمَل باستمرار[٣٦].

مناقشة نظرية دوام الحياة:

نصوص برجسون السابقة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١- تتكون الحياة من جسد وروح.

٢- الروح يعني التغيير وعدم الثبات وعدم الفناء والسعي إلى المستقبل دائماً وأبداً.

٣- حياة الروح غير حياة الجسد، وإن الانفكاك بينهما حاصل ملموس.

٤- تنحصر ديمومة الحياة في الحياة الدنيا التي نعيشها، وسنتغلب على الموت لاحقا.

٥- الرجل مكلف بنقض معتقد الديانات الإلهية في الحياة الآخرة الأبدية، وتقديم البديل في صورة الحياة الدنيا.

وعند النظر في النقطة الأولى: لا يسع أحداً الاختلاف مع برجسون، فالحياة تتركب من جسد خارجي وشيء داخل هذا الجسد، لا يعرف الناس حقيقته حتى هذه اللحظة، ويسمون ذلك المجهول

٣٥- هنري برجسون، **الطاقة الروحية**، ترجمة: سامي الدروبي، طبعة دار الفكر العربي، دون تحديد المكان، ط ٢، ١٩٦٣م، ص ٤٣.

٣٦- **الطاقة الروحية**، ترجمة: سامي الدروبي، ص ٤٤ وانظر: ص ٥٨، وانظر: **الطاقة الروحية**، ترجمة: علي مقلد، ص٧٣.

بالروح، ونوّع برجسون في تسمياته ـ أنا الداخلية، الحدس، الذات، الشعور... ـ إلا أن هذه التسميات المتنوعة لا ترفع عنه الجهالة، ولا يمكن تقديمه إلى الناس كشيء معلوم.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة المجهولة فقال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٣٧).

يقول ابن كثير في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ أي من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى والمعنى أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى(٣٨).

إذن حقيقة الروح مجهولة، قامت عليها حياة الإنسان في الماضي وتقوم عليها الآن وستقوم عليها في المستقبل، دون أن تعرف ماهية الروح وجزئيات تكوينه، وتفسيره بالفلسفة ضرب من الوهم والخيال، لا يقود إلى كشف الحقيقة والواقع.

وحين ننظر إلى النقطة الثانية: من أن الروح يعني التغيير وإتيان الأعمال الجديدة...، نجد أن برجسون لم يقدم شيئاً جديداً في حقل المعرفة، كل الذي قاله مُسَلَّمٌ به منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا يتوقف التغيير بالموت، فإن كان تفسير التوقف بالاعتلال واعتراء الموت ممكنا في كثير من الحالات البشرية، فبماذا تفسر الحالات التي لا اعتلال فيها عند حدوث الوفاة، وهي كثيرة أيضاً تضارع الحالات الاعتلالية، ومع ذلك يتوقف الجسد عن الحركة والتغيير، فماذا حدث له؟ لا شيء في الظاهر المادي المحسوس أوقف الحركة والتغيير، كل آلات الجسم سليمة، قادرة على أداء الحركة، إلا أنها لا تتحرك، فماذا حدث؟ لا تجد إجابة لهذا التوقف إلا في معتقد الناس المتوارث "أمر الله"، فالكون بما في ذلك الإنسان خاضع له، فبأمره يتحرك وبأمره يتوقف، إذن محاولة تفسير الروح بالحركة محاولة تفسيرية يائسة، لم تقدم أي جديد يمكن للإنسان أن يستفيد منه، أو أن يعتمد عليه.

٣٧- سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

٣٨- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، طبعة مطابع المختار، توزيع مكتبة دار التراث، القاهرة، ج ٣، ص ٦١.

وعند النظر في النقطة الثالثة: القائلة بأن حياة الجسد غير حياة الروح، وأن الانفكاك بين حياتيهما حاصل ملموس، نجد الأمر غير منكرٍ في الديانات الإلهية.

والاعتراف بهذا الانفكاك عند من لا يؤمن بالمعتقدات الدينية، ويحصر المعرفة في التجربة والمحسوس أمر غير مبرهن، لأن الروح لا تشاهد، فإن كنت تستطيع إثباتها في الجسد الحي بالحركة، فأنت غير قادر على إثباتها في الجسد الميت، فأين ذهبت؟ وما مكان إقامتها؟ وهل هي في حالة سعادة أو شقاء؟

كل هذه الأسئلة لا يملك المادي الإجابة عليها، فهلا أخبرنا برجسون بمكان وجود الروح بعد موت الجسد الذي كانت فيه؟ فليس أمامه إلا خياران: وكلاهما مبناه المعتقد، لا العلوم التجريبية.

أ- تخرج من جسد الميت وتدخل جسداً آخر ذا ولادة حديثة، كما هو معتقد الديانة الهندوسية في تناسخ الأرواح.

ب- تخرج من الجسد الميت ولا تدخل جسداً آخر، ولا تفاوت في درجاتها في بقائها البرزخي، فمن الأرواح ما تحبس عند قبور أصحابها، ومنها ما هي في قناديل مظلة في الجنة...، كما هو معتقد المسلم.

هذا وقد أخبر القرآن الكريم أن الموت مملوك لله، وأن الروح تفارق الجسد حالة النوم وحالة الوفاة: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣٩).

إذن حياة الروح غير حياة الجسد، والانفكاك بينهما حاصل دون ريب، ونيل المعرفة عنه يرتبط بالوحي لا النظر الحدسي ولا التجارب المعملية، وربما تسرب القول بالانفكاك إلى عقل برجسون من المعتقد الذي ورثه من أبيه وأمه المؤمنين بالمعرفة الغيبية.

وفي النقطة الرابعة: يحصر برجسون دوام الحياة في الحياة الدنيا، ويتمنى أن يقدم العلم التجريبي كبسولة ديمومة الحياة، أو حُقْنَةَ القضاء على الموت في هذه الحياة العاجلة، ويُنتقد ذلك من وجهين:

١- فمنذ فجر التاريخ نجد الحياة تحل في الأجسام ثم تفارقها بالموت، ولا استمرار لمن دخلت فيه، وتلك سنة الله في كل كائن حي، وإن الموت سيدرك كل من تمتع بالحياة، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٤٠).

٣٩- سورة الزمر، الآية: ٤٢.

٤٠- سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

أما أمنية برجسون بتقدم العلم المادي للقضاء على الموت واستمرار الحياة، فستظل أمنية غير قابلة للتحقيق، وربما طَلَبَ البشرُ أنفسهم حلولَ الموت، ولاسيما عند الهرم وعجز القُوَى الجسدية، وانعدام المعين لقضاء الحوائج، وتضايق المحيطين به...، فيتمنّى الإنسان مفارقة الحياة، كما يتمنّى صالحو البشر استعجال لقاء الله على الحالة التي ترضي ربَّهم عز وجل ويريدون الخروج من سجن الدنيا إلى سعة الآخرة.

٢- نصّت كل الرسالات الإلهية على أن دوام الحياة لا وجود له، إلا بعد يوم العرض والحساب، ومحاسبة الناس على ما قدمت أيديهم في هذه الحياة الفانية، فمنذ عهد آدم إلى آخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وهم يَنُصُّون على وجود يومٍ يبعث فيه الناس بعد الممات، ويحاسبون على أعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، قال تعالى في خلود الكفار في النار وخلود الصالحين في الجنة: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٤٢).

هذا وقد أخبر القرآن الكريم أنه لا دوام لأحد في هذه الحياة العاجلة، بما في ذلك الرسل والأنبياء فالموت يلحقهم كما يلحق غيرهم: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٤٣).

المبحث الثالث: برجسون وتطور الحياة:

نظرية نشأة الحياة:

قبل الحديث عن تطور الحياة وتغيرها عند برجسون، لا بد من توضيح كيفية وجود الحياة، ومَنْ هومُوجِدُها ؟ وفي أيّ كائن ظهرت لأول مرة...، لأن التطور صفة من صفاتها، فلا يسعنا التحدث عن الصفة قبل وجود الموصوف.

فحين ننظر إلى كتابات برجسون لا نجد الحديث التفصيلي عن وجود الحياة وموجدها

٤١- سورة البقرة، الآيتان: ٨١، ٨٢.

٤٢- سورة المائدة، الآية: ١١٩.

٤٣- سورة الأنبياء، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

ولا الظروف التي أوجدتها، بل كل الذي نجده عند الرجل جمل مبتورة مبهمة، وتصور ناقص لا يقود إلى وضوح الرؤية الذهنية، على الرغم من أن الرجل بليغ في تقديم التشبيهات والجمل التصويرية.

ومن هذه الجمل المبهمة عن نشأة الحياة قوله: "نحن هنا بصدد تيار حي قد نبع في وقت ما، وفي نقطة ما، من مكان ما، واجتاز أجساما كَوَّنَها على التعاقب والتنقل من جيل إلى جيل، وما لبث أن انقسم بين الأجناس وتشتت بين الأفراد، دون أن يفقد شيئاً من قوته، بل إنه ازداد شدة كلما أوغل في التقدم"(٤٤).

ويعرف برجسون الحياة بأنها "نزوع إلى الفعل، وميل إلى التأثير على المادة الخام، إلا أن اتجاه الفعل غير محدد من ذي قبل، ومن هنا فلا سبيل إلى التنبؤ مقدما ما ستوجدها الحياة في مراحل تطورها المستقبلية"(٤٥).

لا شك أن الرجل لم يرتض التفسير الداروينى لوجود الحياة، المبني على اتحاد عناصر كيمائية في ظروف ملائمة خاصة، أظهرت صدفة الخلية الأولى، وتطورت هذه بدورها في سلسلة التطور الطويلة، ووصلت إلى ما هي عليه اليوم(٤٦).

وقد نقد برجسون صدفية الحياة علمياً، بوجود عضو العين، الذي يتم عن طريقه الإبصار، في صورتين مختلفين في كل من الحيوانات الفقارية والحيوانات الرخوة، على الرغم من اتحادهما في التطور(٤٧).

ومع هذا النقد العلمي لم يقدم برجسون البديل المقنع لنشأة الحياة، كل الذي قدمه أن للحياة أصلا غير مادي، وأنها انطلقت من خزان كبير للحياة، وتناثرت صورها في كل الكواكب التي تدور في ركب النجوم، واتخذت أشكالا لا يصل إليها خيالنا البشري، في ضوء ما أحاط بها من ظروف(٤٨).

وفي تشبيهه المشهور يرى أن الحياة أشبه بنفث البخار المنطلق من خزان كبير، وأن المادة أشبه بقطرات البخار المتكثفة، التي سقطت في الاتجاه المضاد، أما الأحياء المتنوعة فهي كل ما تبقى من ذلك النفث الأصيل، الذي يحاول أن يوقظ ما تساقط منه(٤٩).

٤٤- Challaye: Bergson, Paris Editons Mellotte Collection les nouvelle edition, 1947, p: 183.

٤٥- Challaye: Bergson, p. 105.

٤٦- Challaye: Bergson, p. 95

٤٧- Challeye: Bergson, p. 98.

٤٨- Energie Spirituelle: H-Bergson,Paris Editons Mellotte Collection les nouvelle edition, 1949, p. 63.

٤٩- Energie Spirituelle: H- Bergson, p. 268 + 272

مناقشة نظرية نشأة الحياة:

من منطلق محاولة النقد وتقديم البديل، قدم برجسون نظريته هذه في وجود الحياة، فقدم صورة لا تقره العلوم في المعطيات المقدمة من علم البيالوجيا (الحياة) فلو ظل الرجل على إيمانه بالتوراة أو الإنجيل، لما احتاج إلى مثل هذا الوهم الفلسفي، لأن المعلومات المتوفرة عن وجود الحياة في الكتب المنزّلة على رسل الله تغني عن مثل هذا الوهم، ولو عاش الرجل إلى الآونة المعاصرة لرجع عن كثير مما توهمه، في جولاته الفكرية الفلسفية.

فحين ننظر إلى النصين السابقين نجد الرجل قدم أوصافا عامة وغامضة للحياة من أهمها أنها:

(١) تيار حي (٢) نبع في وقت ما، (٣) في نقطة ما، (٤) في مكان ما، (٥) اجتاز أجساماً على التعاقب، (٦) انقسم بين الأجناس والأفراد، (٧) لم يفقد من قوته شيئاً في تقدمه المستمر، (٨) الحياة تنزع إلى الفعل والتأثير في المادة الجامدة، (٩) وجهة التأثير مجهولة، (١٠) لا يمكن التنبؤ بما ستوجده الحياة.

فكل هذه الأوصاف لا تقدم لنا أية دلالة واضحة على كيفية وجود الحياة، ومَنْ هو موجدها الأول، وفي يد أيّ كائن وضعت رحالها في بداية وجودها...؟

وأما ما قاله من أن أصل الحياة غير مادي، متناثر الصور والأشكال، لا يصل إليه الخيال البشري، وأن الحياة أشبه بخزان ممتلئ بالبخار، وأن القطرات المكثفة المتساقطة هي المادة بصورها المختلفة، وأن الأحياء المتنوعة هي البخار المتبقي من الحياة. فإن تصوير برجسون هذا شبيه بتصوير العُمْيان، الذين قيل لهم صفوا لنا الفيل، بعد أن أُخِذُوا إليه للجس ونقل الصورة إلى الذهن، فمن وقعت يده على أرجله قال الفيل كوتد الخيمة، ومن وقعت يده على أنيابه قال الفيل كالسكاكين الحادة...

لم يكن برجسون في حاجة إلى كل ما قاله عن الحياة لو اعترف بمصدر المعرفة الرسولية عن طريق الوحي، فإن الإجابة في ذلك المصدر لا تحتاج إلى عناء. تقول التوراة السامرية عن وجود الحياة "وقال الله تخرج الأرض نفسا حية لجنسها، بهيمة ودبيبا ووحشية الأرض لجنسها، وكان كذلك، وصنع الله وحشية الأرض لجنسها، والبهائم لجنسها، وكل دبيب الأرض لأجناسه"(٥٠).

وفي التوراة العبرية: "وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها"(٥١).

٥٠- **سفر التكوين**، الإصحاح الأول فقرة ٢٤، ٢٦، ص ٣٦.

٥١- المصدر السابق، فقرة ٢٤، ٢٥، ص ٤.

أما وحي الله الأخير الذي أنزله على آخر رسله، فالأمر فيه أوضح من الشمس في رابعة النهار، فقد نصّ على موجد الحياة، وأن الله هو خالقها، كما أنه خالق السماوات السبع: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾(٥٢).

فالحياة مخلوقة خلقها الله، فليعترف الإنسان بأن موجدها هو الله عز وجل، وليخفف العناء عن العقل، لأنه لم يخلق لمثل هذا البحث والتنقيب، بل خلق لاستكشاف سنن الله وقوانينه في الكون، التي يسير الله بها مخلوقاته، فيستفيد منها في حياته العاجلة.

التطور الخالق:

كلمة التطور مأخوذة من الطَّوْرِ التي تعني في اللغة العربية التحول والقرب والمرة والتارة والحد والحال والهيئة وجوار الشيء والمنتهى، ويقصد به هنا التحول من هيئة سابقة إلى هيئة لاحقة مثلى، أو الرقي من حال أدنى إلى حال أرقى(٥٣).

لم يُعَوِّد برجسون نفسه على تقديم تعريف محدد للشيء الذي يريد الحديث عنه، أو النظرية التي يريد تقديمها إلى العالم، بل يعوض عن ذلك بذكر أوصاف الشيء ومحتوياته وما يقود إليه، لذا لا أعدو الحق إن قلت: إنه ألزم نفسه في باب التعريف بتعريف الشيء بالوصف، لا الحد الذي يفضله علماء المنطق، لذا لا نجد له تعريفا دقيقا لنظرية التطور التي قدمها إلى البشر.

فمن أوصاف التطور عنده: الاستمرار والنمو والنضج وخلق الموجود ذاته بلا انقطاع، لذا ينص على ما لاحظه من التطور في دراسة الحياة النفسية فيقول: "إن دراستنا للحياة النفسية قد أطلعتنا بوضوح على أن الوجود بالنسبة إلى الكائن الواعي المتصف بالشعور هو التغيير، والتغيير معناه النمو والنضج، والنضج هو أن يخلق الموجود ذاته بلا انقطاع"(٥٤).

ويرى أن ظاهرة التغير والتحول موجودة حتى لدى الكائنات الدنيا المكونة من خلية واحدة، فالموجودات الحية تخضع لتحولات دائبة وتطور مستمر ودوام لا ينقطع، وتصل به القناعة إلى أن التحول

٥٢- سورة الملك، الآية: ١-٣.

٥٣- انظر: **المعجم الوسيط**، إشراف عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران، مادة طار، ج ٢، ص ٥٧٥.

٥٤- **التطور الخالق**، ص١٠، Evolution Create: H-Bergson, Paris Editons, 1947, p-10

في الجسم الحي هو الأساس، لا وجوده الظاهري الملموس، وأن التغير هو الأصل لا الثبات[٥٥].

ونجد الرجل يصف تطوره بأنه استمرار التقدم وتتابعه إلى ما لا نهاية، وأنه يتحقق عبر الأجناس المتعاقبة التي تحوي طاقة حيوية، قوامها النشاط المستمر والعمل الدءوب في صور جديدة من الحياة[٥٦].

ويمهد لوجود أشكال الحياة المتعددة، فيرى أنها أتت عن طريق التطور، وأن استمرار التغير يعني المحافظة على الماضي في صورة الحاضر "فلو لاحظنا جنين الطير وجنين الثعبان في فترة معينة من فترات تطورهما، لوجدنا أن الفارق بينهما لا يكاد يذكر، وهذا يقودنا إلى القول بأن الفرد الحيواني مرّ في تطوره على الخط الذي مرّ عليه فَرْدُ الطير، من التحولات المتعاقبة، تم خلالها الانتقال من جنس إلى جنس، لذا نجد كل يوم خروج أشكال جديدة متطورة من الحياة، خرجت من الشكل البدائي أو صورة أولية، بما أن الأمر كذلك، ألا يحق لنا أن نقول إن أعقد أشكال الحياة صدر عن أكثرها بساطة، عن طريق التطور"[٥٧].

ويصف الرجل تطوره بأنه خلق مستمر واختراع لا ينقطع وإبداع لا نهاية له وجدّة مستمرة، فهو تطور خالق لا يمكن التنبؤ بمستقبله ولا الغاية التي يضمرها[٥٨].

وينشأ التطور في نظر برجسون من الصراع القائم بين المادة[٥٩] الجامدة التي تريد الثبات والركون إلى الراحة، وبين الحياة التي تريد الحركة والوثوب، وقد كافحت الحياة ضد جمود المادة، ولولا هذه المقاومة التي لقيتها الحياة من جانب المادة غير الحية لما اضطرت الحياة إلى التفرّق والتشتت على شكل أنواع وأفراد[٦٠].

وإن الوثبة الحيوية هي العمود الفقري لكسر هذه المقاومة عن طريق التطور، فالوثبة تعني تلك القوة المشتركة بين سائر أنواع الحياة التي تطور الأنواع المختلفة المتشابهة من بعض الوجوه[٦١].

٥٥- Evolution Create:H- Bergson, p. 17.

٥٦- Evolution Create:H – Bergson, p. 30.

٥٧- Evolution Create:H – Bergson, p. 24.

٥٨- Evolution Create: H – Bergson, p. 114 +103.

٥٩- المادة في نظر برجسون هي المظاهر التي تؤلف الكون، انظر: **التطور الخالق**، ص ٢٧٢.

٦٠- Evolution Create: H – Bergson, p. 103.

٦١- Evolution Create: H – Bergson, p. 59.

وإن علم الحفريات يلزمنا بوجود مثل هذه الوثبة لإظهاره أنواعاً من الحياة غير المتطورة ضئيلة العدد، وأنواع أخرى كثيرة العدد اتخذت الحياة وسيلة للتطور(٦٢).

وقد كانت الحياة عند ظهورها المبدئي أشبه ما تكون بالمادة في الجمود والاستقرار لأنها كانت تنحصر في النبات وحده، وما لبثت أن طلبت الحرية من قيود المادة وراحت تبحث عن نموذج تحقق فيه مبتغاها، فاخترعت أنواع الحيوانات وزوّدتها بالأعضاء، كي تحقق شيئاً من الحرية المنشودة، ثم ما لبثت أن وضعت كل آمالها في واحد من تلك الحيوانات جميعاً، ألا وهو الإنسان(٦٣).

مراحل تطور الحياة:

وقد مرت الحياة في تطورها عند برجسون بثلاث مراحل:

١- مرحلة النبات إذ كانت الحياة في مبدأ ظهورها أقرب إلى سكون المادة وجمودها، فقد كانت تتمثل في النبات وحده، وبوثبة حيوية(٦٤) ناشدة للحرية انتقلت من مرحلة النبات إلى مرحلة الحيوان الغريزي.

٢- مرحلة الحيوان الغريزي الذي يسعى في حدود مرسومة ومنهج معلوم، وخير من مَثَّلَ الحياة في هذه المرحلة النمل والنحل، وبوثبة حيوية ناشدة للحرية انتقلت من مرحلة الحيوان الغريزي إلى مرحلة الحيوان الفقاري.

٣- مرحلة الحيوان الفقاري الذي سلك مسلك الفكر والبحث، وما زال ينمو ويشتد ويصلب عوده يوما بعد يوم، فهو ذخر الحياة وأملها الذي سيحقق لها ما تنشده من الحرية والدوام، ووجدت كل ذلك في الإنسان فاستقرت فيه(٦٥).

وما أن وصلت الحياة إلى الإنسان حتى وجدت فيه العقل والذكاء، والقدرة الفائقة على استخدام أدوات غير عضوية، وذلك بصناعة آلات متعددة المنافع، فاستغل المادة في أغراضه النافعة، فالنوع الإنساني هو الذروة التي بلغها التطور، في سلسلة الحيوانات الفقرية(٦٦).

٦٢- Challaye: Bergson, p.183+283+272+39

٦٣- Evolution Create: H – Bergson, p. 267

٦٤- يصف برجسون الوثبة الحيوية بأنها القوة المشتركة التي تنتشر في سائر الأحياء فتجعل تطور الأنواع متشابها من بعض الوجوه. EVO… Cre… H.B, p-59 وانظر ص ٢٨ +٢٧١ إذ يشترط برجسون وجودها لامتداد مبدأ التطور.

٦٥- انظر تفصيله في **التطور الخالق**، Evolution Create: H - Bergson P. 114

٦٦- Evolution Create: H – Bergson P 135-137

ويصل التطور عن طريق الوثبة الحيوية عند برجسون، إلى إزاحة كل العوائق التي تقف في طريق الحياة، فيحطم كل ضروب المقاومة حتى تنال الحياة انتصارها على كل الأعداء، ومن يدري فربما تستطيع الإنسانية يوما أن تتغلب حتى على الموت، ولكن عقلنا مفتوح لآمالنا، لأن جميع الأشياء ممكنة عن طريق تطور الحياة(٦٧).

وإن الوثبة الحيوية حين نقلت الحياة من الحيوان إلى الإنسان عن طريق التطور، فإنها نقلت المحدود إلى اللامحدود، بل نقلت المغلق إلى المفتوح، وإن هذا الانتقال هو الحد الأقصى لعملية التطور، وإن الأنواع السابقة من الحياة لم تخلق لخدمة الإنسان، وإنها وَجَدَتْ في الإنسان غايتها المنشودة، لِتَمَيُّزِه بالعقل فاستقرت فيه، ويمكن عد ذلك نقطة النهاية في عملية التطور(٦٨).

التلخيص:

يمكنني إجمال ما قاله برجسون عن تطوره الخالق في ست نقاط:

١- ينشأ التطور من الصراع القائم بين المادة الجامدة وبين الحياة المتحركة، ويعني في هذه الحال النمو والنضج.

٢- يمتاز التطور بأوصاف أهمها: أنه خلق مستمر واختراع لا ينقطع لا يمكن التنبؤ بمستقبله، يخرج كل يوم أشكالاً جديدة من الحياة...

٣- مرّ تطور الحياة بثلاث مراحل: مرحلة النبات فمرحلة الحيوان الغريزي ومرحلة الحيوان الفقاري، ووسيلته في كل ذلك الوثبة الحيوية.

٤- يخلق الشيء نفسه، وأن النمو والنضج يعني خلق الموجود ذاته.

٥- أنواع الحياة السابقة لم تخلق لخدمة الإنسان.

٦- استقرار الحياة في الإنسان هو نهاية التطور.

مناقشة مراحل تطور الحياة:

حين ننظر إلى النقاط الستة، نجد الواقع المشاهد والتجارب المعملية لا تسندها على الإطلاق:

١- ففي النقطة الأولى: نجد الرجل يبني التطور على الصراع بين الحياة المتحركة وبين المادة الجامدة التي لا تريد الحركة، فكلمة الصراع تعني عدم الانسجام ووجود العداوة بين شيئين، وأن أحدهما يريد التغلب على الآخر، فيفوز القوي ويندحر الضعيف....

٦٧- CF. R. Berthelot un Pragmatisme Utilitaire, H – Bergson, Paris 1946, T. II. P. 48.

٦٨- Evolution Create: H – Bergson, p. 113.

كل ذلك غير مشاهد في مظاهر المادة المختلفة، وربما العكس هو المشاهد الملموس، فمظاهر المادة تنقاد للإنسان متى تمكن من كشف قوانينها، ومتى أمكنه كشفها تنقاد له دون تردد لأنها خلقت لخدمته، فمن الظلم أن نتصور الصراع بين المادة والحياة والحال كما ذكرت.

فلو كان الأمر كما يقول برجسون، لوجدنا التناوب في الفوز والانهزام، ولو مرة واحدة في بعض أنواع الصراع، فتفوز المادة و تنهزم الحياة، إلا أن ذلك غير مشاهد لدى الناس، بل العكس هو الذي تشهد به مسيرة الإنسانية، وهو الملموس والمعايَن، فالوئام والانسجام هو الموجود في كل ذرة من ذرات الكون، فخدمة إحداها للأخرى وتيرة ظاهرة، فالحرارة تبخر المياه فينزل المطر، فينبت الزرع فيأكله الحيوان، ويتغذى الإنسان على لحم الحيوان.

إذن كل ذرة تخدم الأخرى في غاية الانسجام والوئام، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٦٩).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "هو مصطحب مستوٍ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيبا أو نقصا أو خللا أو فطورا(٧٠).

٢- وفي النقطة الثانية: الخاصة بأوصاف تطور الحياة، فعند فحص هذه الأوصاف حسب معطيات العلوم التجريبية، لاسيما علم الحياة نجدها تبرز لنا ما يناقض قول برجسون، وأخص بالذكر علم الوراثة في فروعه المتعددة، ولا أشك أن المتخصص في علم الوراثة ـ لاسيما علم الجينات ـ سيستهزئ اليوم بما قاله برجسون في تنوع الحياة من المصدر الأساسي الواحد.

فمن أبجديات علم الجينات في كل نوع من أنواع الحياة، أنه ثابت العدد، لا يختلف من فرد إلى آخر، مهما تنوع وتعدد، فجينات الإنسان محددة بستة وأربعين جينا، لا تزيد عليه ولا تنقص عنه(٧١).

٦٩- سورة الملك، الآيات:١-٤.

٧٠- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٩٦.

٧١- انظر: الكتاب المقرر في مادة الأحياء للصف الثاني الثانوي، الفصل الدراسي الأول، ص ١٤٤، لمدارس المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٢٩- ١٤٣٠هـ.

وجينات البصل والفجل محددة لا تزيد ولا تنقص، ومتى اختلفت الجينات في نوع ما من الحياة بسبب التهجين من غير جنسه مثلاً لا يستمر التناسل، كالبغل فإنه نتاج الفرس والحمار، فاختلاف الجينات بين نوعين مختلفين كَفِيْلٌ بقطع التناسل، لذا لا يتناسل البغل(٧٢).

نستنتج من ذلك أن كل جنس من الحياة له الاستقلال التام، لم يأت متناسلا من جنس آخر، يجتمع فيه هو وغيره في ذلك الجنس السابق، فعلم الجينات (كروموسومات) ينقض كل ما قاله برجسون وتكهن به من منطلق الفلسفة وتقديم الجديد إلى البشر، حتى ولو كان ذلك على حساب العلم(٧٣).

٣- وفي النقطة الثالثة: التي حصر فيها مراحل تطور الحياة في ثلاث لم يأت بجديد، بل كل الذي فعله أنه قلل من عدد مراحل التطور عن من سبقه من القائلين به، وكل ذلك ظن وتخمين، فلا دارون شاهد الحياة تتطور وتمر بالمراحل المختلفة، ولا برجسون شاهد الحياة تتطور وتمر بثلاث مراحل، بل كل ذلك تخمين لا يعتمد على دليل علمي تجريبي معملي، أو دليل من الوحي الإلهي.

بل علم الوراثة يقدم الأدلة المناقضة على هذه المراحل الثلاث، وإن كل جنس من الحياة في كل هذه المراحل له استقلاله التام لا يشاركه فيه غيره، لأن علم الكروموسومات يأبى ذلك.

فحياة النبات له مورثاته الخاصة به لا تعدوها، وحياة الحيوان الغريزي له مورثاته الخاصة به لا تعدوه، وحياة الحيوان الفقاري له مورثاته الخاصة به لا تتجاوزه، وفي الأجناس الثلاثة التي قال بها برجسون عشرات الأجناس من الحياة، لا تشترك إحداها مع الأخرى، لاختصاص كل جنس بكروموسوماته الخاصة، ومتى اختلفت الكروموسومات انقطع التناسل والاستمرار.

وفي ضوء معطيات علم الوراثة، فهناك مئات الأجناس من الحياة لا تشترك إحداها مع الأخرى، بل لكلٍ استقلالها، ولكلٍ مورثاتها الخاصة بها، فمورثات البقر غير مورثات الإبل، ومورثات الإبل غير مورثات الفرس، ومورثات الكلاب غير مورثات الماعز...

وقِسْ على ذلك مورثات الدجاج فإنها غير مورثات الحمام، ومورثات الحمام غير مورثات العصافير، ومورثات النمل غير مورثات النحل، ومورثات النحل غير مورثات الصرصار، ومورثات

٧٢- انظر: كتاب الأحياء المقرر للصف الثاني الثانوي، الفصل الدراسي الأول، الطفرات الجنية، ص١١٠، وأصبحت هذه الحقائق من المسلمات في علم الأحياء، لا تقبل النقاش، لذا أدخلتها الدول في مناهجها كحقائق مسلّمة.

٧٣- انظر لمزيد من المعلومات عن خطأ نظرية دارون، ما نشره فريق علم الأحياء من جامعة كاليفورنيا في تقريرهم عن (R.B) الأنثى الأولى في العالم التي وجدوا هيكلها العظمي في الحبشة وقدروا عمره بأربعة ملايين وأربع مائة سنة وأنه يماثل هيكل الأنثى الحالية المعاصرة، ونشر ذلك كخبر في القنوات العالمية منها قناة الجزيرة يوم ١/ ١٠/ ٢٠٠٩ م.

شجرة التين غير مورثات شجرة التفاح، ومورثات شجرة التفاح غير مورثات شجرة البرتقال...، فَعِلْم المورثات يدحض كل افتراءات التطور دون مواراة.

٤- وعند النظر إلى النقطة الرابعة: من أن الشيء يخلق نفسه، وأنه لا يحتاج إلى منشئ وموجد يوجده...، القول بمثل ذلك لا يقره السابقون من البشر ولا الموجودون، فلو نظر برجسون إلى وجوده الخارجي نفسه لكذبه شعوره الداخلي، ولحكم عليه الحدس ـ الذي يعتبر برجسون حكمه نهاية المعرفة ـ بالقول غير المعقول عند العقلاء: من أن الشيء يخلق نفسه، فلولا وجود أمه وأبيه والتقاؤهما تحت السقف الزوجي لما خرج برجسون إلى حيز الوجود.

وقد كشف القرآن الكريم هذا الزيغ في صورة لا تقبل الشك، ووضع الاحتمالات الممكنة لوجود البشر، ونقضها بدليل عقلي مقنع، قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(٧٤).

ويحلل ابن كثير هذا الالتفات الربّاني المفضي إلى الإقرار بالرب الخالق الذي لا يستحق العبادة سواه، فيقول: "هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكورا"(٧٥).

٥- وعند النظر إلى النقطة الخامسة: القائلة بأن أنواع الحياة السابقة لم تخلق لخدمة الإنسان، نجد الموجودات الكونية لا تؤيدها من وجهين: الواقع والوحي.

أ- فعند النظر إلى واقع أنواع الحياة المختلفة، نجدها تخدم الإنسان، فالحيوان بلحمه يخدم الإنسان، والأشجار المثمرة بثمراتها تخدم الإنسان، وغير المثمرة بأخشابها تخدم الإنسان، والبقوليات في تقديم الغذاء وتلبية مطالب الجسد تخدم الإنسان، والمياه بالإرواء والقضاء على العطش... تخدم الإنسان.

ب- وأما الوحي فقد جزم بما لا يدع مجالاً للشك بأن كل ما على وجه الأرض وفي باطنها خلقه الله لخدمة الإنسان، وتلبيةً لاحتياجاته الجسدية، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٧٦).

٧٤- سورة الطور، الآية: ٣٤ -٣٦.

٧٥- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٢٤٤.

٧٦- سورة البقرة، الآية: ٢٩.

٦- وعند النظر إلى النقطة الأخيرة في تطور الحياة عند برجسون، والتي جزم فيها بأن النهاية في تطور الحياة هي الإنسان، وهو بذلك ينفي الخلق المباشر من الله للإنسان، ويعارضه في ذلك القرآن الكريم، الذي هو أصدق كتاب على وجه الأرض في تقديم المعرفة.

فقد أخبر أن خلق آدم جاء مباشرة من الله عز وجل دون واسطة أو تطور، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾(٧٧).

ففي ضوء الآيات السابقة نجزم بأن:

أ- ١- الله خَلَقَ آدم من طين وهو التراب + ماء.

٢- خلق الله آدم بيده.

٣- أَسْجَدَ له ملائكته.

٤- سجد الملائكة كلهم لآدم، وامتنع إبليس عن السجود.

٥- تم كل ذلك لآدم بعينه، لا لجنسه ولا لنوعه.

ب- يشهد العلم التجريبي الحديث أن الكائن الأعلى ربما أنتج كائنا أدنى، كالأم والأب العاقلين يلدان ولداً غير عاقل، أو أبوين كاملين في الخلقة ينتجان مولوداً ناقص الخلقة، أما العكس فلا يوجد إلا شاذاً نادراً، لذا لم يبحث عنه العلم، والقول بالتطور عموما والبرجسوني خصوصا يمثل الرأي الشاذ ويناقض شهادة العلم.

ج- أثبت علم الجينات (المُوَرِّثات) ولاسيما بعد اكتشاف DNA وفكّ أجزاء من الشفرة الوراثية عدم التغير في الصفات الأساسية في أيّ من المخلوقات، ومتى اختلّت الجينات أو اختلفت عن المعهود يموت ذلك الكائن، أو لا يستمر تناسله، فلو كان الإنسان آتياً من الحيوان الغريزي الذي تختلف جيناته عن الإنسان لما استمر الإنسان في التناسل، ولفنى منذ أمد بعيد.

د- لماذا يختص الإنسان بالتفكير دون سائر الحيوانات، على الرغم من انحداره منها، وكان المفروض وقوع العكس.

هـ- ينفرد الإنسان بأشياء دون سائر الحيوانات، كتصنيع الطعام، وارتداء اللباس، دون سائر

٧٧- سورة ص، الآية: ٧١-٧٥.

الحيوانات وهو فرعها كما افترضوا، والمعروف أن الفرع يكون أضعف من الأصل مهما ارتقى وتطور فإنه يظل دون مرتبة الأصل، في حين النظر إلى الإنسان يقودنا إلى أنه أقوى من الأصل المفترض الذي تناسل منه.

و- بما أن المادة شاركت الحياة في أصل الوجود، والإنسان أرقى نموذج وصلت إليه، فقد كان من المفروض أن ينطبق عليه ما ينطبق على المادة، إلا أن ذلك غير واقع في الإنسان، فالمادة أياً كان نوعها تتصرف تصرفاً واحداً متى اتحد الجو وتماثلت الظروف، فالماء بكل أنواعه ـ ماء النهر، ماء البئر، ماء البركة، ماء البحر ـ يأخذ في التجمد متى سلبت منه درجة حرارة معينة، ويأخذ في التبخر متى سلطت عليه درجة حرارة معينة.

فإذا كان الإنسان مادة فيجب وفقاً لتصوراتهم أن ينطبق عليه ما ينطبق على المادة، إلا أن المعهود أنه يتصرف أكثر من تصرف في الجو المتحد، مخالفاً بذلك قوانين المادة البحتة، إذن هو مادة وشيء آخر.

ز- لماذا وقف تطور الحياة على الإنسان وحصر نفسه فيه ولا يريد تجاوزه، على الرغم من أن الإنسان حلقة من حلقات تطور الحياة، وعليها أن تتعداه كما تعدت النبات والحيوان الغريزي، أما قول برجسون إنها وجدت فيه بغيتها، فهو قول لا يسوغ وقوف التطور، بل قوله هذا حيلة المنقطع ومن فقد الحجة والبرهان.

ليته اعترف باستقلال كل جنس من أجناس الحياة، وأن الله خلق كل شيء وأعطاه مميزاته، ولو قال ذلك لأَغْنَاه عن مثل هذه التعليلات غير المقبولة عقلا وعلما، وقد تنوع ذكر الخلق وحصره في الله في مئات الآيات من القرآن الكريم، مرة بالتنصيص على أفراد المخلوقات كالسماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٧٨).

ومرة بالتنصيص على نوع من أنواع المخلوقات، وأنه الخالق له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٧٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾(٨٠).

٧٨- سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

٧٩- سورة النحل، الآية: ٥.

٨٠- سورة يس، الآية: ٧١.

ومرة بالإجمال وذكر صيغة العموم، وأنه خالق كل الموجودات التي يقع عليها أبصارنا وما لا يقع عليه أبصارنا، قال الله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾(٨١)، وقال عز من قائل: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾(٨٢).

كل ذلك خاضع لعلمه وقدرته، وأنه وضع في كل مخلوق صفاته المميزة له، وقدَّرها محكمَ التقدير، ومن هذا التقدير ما يحمله المخلوق الحي في داخله من صفات الوراثة والكروموسومات، وأنه الوكيل بها دون ما سواه، وأن كل شيء يحفظ أسراره بهداية منه عزوجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(٨٣) وقال في سورة الفرقان: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾(٨٤) وفي سورة القمر: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾(٨٥).

ولربما إلى مثله جاءت الإشارة الإلهية بعدم التغيير في السنن الكونية، قال تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ ﴾(٨٦) فلا مكان للتطور وتنوع أجناس الحياة عن طريقه بعد بيان القرآن، وجاء علم الوراثة وقدم الشهادة التجريبية على صدق القرآن باستقلال كل جنس من أجناس الحياة، فالتطور خرافة اخترعها العقل البشري، لظروف معينة وُجِدَت في الغرب الأوربي، للتخلّص من قبضة الكنيسة،وإلهها المتحكّم في كل الموجودات.

المبحث الرابع: برجسون وتطور الإنسان:

يجزم برجسون أن الطبيعة(٨٧) هي الموجدة للنوع الإنساني أثناء التطور(٨٨)، وأن تطور الحياة

٨١- سورة الأنعام، الآيتان: ١٠١-١٠٢.

٨٢- سورة غافر، الآية: ٦٢.

٨٣- سورة طه، الآية: ٥٠.

٨٤- سورة الفرقان، جزء من الآية: ٢.

٨٥- سورة القمر، الآية: ٤٩.

٨٦- سورة فاطر، الآية: ٤٣.

٨٧- يصف برجسون الطبيعة بأنها "وظيفة ما لعضو ما". انظر للتفصيل: هنري برجسون، **منبعا الأخلاق والدين**، ترجمة: سا مي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، طبعة ١٩٧١م، ص ٦٣.

٨٨- انظر: المصدر السابق، ص ٦٣.

قد أنهى مهامه بوصوله إلى الجسم الإنساني واستقراره فيه، وعوض توقفه بالعقل الذي منحه للإنسان، فحلّ العقل محل التطور، فارتفع بصنع الآلات التي تسهل مهام وجوده، "إن جسماً يحمل من العقل الصانع، ويحمل إلى ذلك هدبات من حدس تحيط بهذا العقل، هو أكمل شيء استطاعت الطبيعة أن تفعله، وذلك هو الجسم الإنساني، وهنا توقف تطور الحياة، ولكن العقل قد ارتفع بصنع آلاته إلى درجة من التعقيد والكمال لم تستطع الطبيعة أن تتنبأ به، وسكب في هذه الآلات من مدخرات الطاقة ما لم تستطع الطبيعة أن يخطر لها على بال"(٨٩).

صفات الإنسان الأساسية:

ويتصف هذا الإنسان عند برجسون بصفتين أساسيتين: الصفة الأولى: العقل. الصفة الثانية: العيش مع غيره في صورة جماعية أثناء الحياة(٩٠)، وهو ما يعبر عنه العلماء بقولهم: "الإنسان اجتماعي بطبعه"، وعلى هاتين الصفتين تقوم الحياة الإنسانية.

وإليك تفصيلها في ضوء الفكر البرجسوني من غير نقد، لأن الأجزاء التي تحدّث عنها في الصفتين من المُسَلَّمات البشرية، منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض إلى هذا اليوم، ولربط أجزاء الموضوع سأبدأ بالصفة الثانية لأن عليها يقوم البناء الأولى في الفكر البرجسوني.

الإنسان الاجتماعي:

يعيش الإنسان في تجمعات بشرية لا يستطيع الانفكاك عنها، مركزها الفرد، فقد سهل لنا المجتمع سبل التجمع، فلكل منا أسرة، ولكل منا صنعة يعيش منها، ولكل منا نسبة ينتسب إليها، كالحي والمركز والمقاطعة: "إن المجتمع قد هوّن علينا الأمر، خاصة بما وضع بيننا وبينه من وسطاء، فلكل منا عائلة، ولكل منها مهنة، وكل منا ينتسب إلى ناحية ومركز ومقاطعة، فإذا كان اندماج الطائفة من هذه الطوائف في المجتمع تاما، كان حَسْبُ أحدنا أن يقوم بواجباته تجاه الطائفة، حتى تبرأ ذمته حيال المجتمع.

المجتمع دائرة مركزها الفرد، وبين المركز والمحيط قد اصطفت دوائر مركزية، آخذة في الاتساع، تمثل الطوائف المختلفة التي ينتسب إليها الفرد، وكلما اقتربنا من المحيط إلى المركز ضاقت الدائرة"(٩١).

٨٩- المصدر السابق، ص ٣٣٦.

٩٠- انظر: المصدر السابق، ص ١٢٨.

٩١- المصدر السابق، ص ٢٤، وانظر: ص ٣٩ وص ٢٥٠.

فالتجمعات البشرية مثلها في ذلك مثل خلية النحل وقرية النمل، فإن الفرد فيها يعمل لمصلحة الجماعة من غير أن يشعر بذلك، فإن كان العمل ناجحا في الخلية والقرية لأنه ينطلق من الغريزة، فإن نجاحه مضمون لدى البشر لازدهار العقل، فَيُجْبِرُ الفكرُ الإنسانَ على العمل لمصلحة الجماعة لأن بقاءها يضمن بقاءه، وإن المصير المظلم هو الذي ينتظر الفرد إذا حصر جهوده في مصلحته الفردية(٩٢).

الحياة الاجتماعية:

فالعادات والطاعات قوام الحياة الاجتماعية وتحل العادة في الإنسان محل الغريزة في الحيوان للحفاظ على المجموع، يستفيد الفرد منه عرضا دون شعور، "وتكون العادة في هذا الكائن الحيّ الصناعي بمثابة الضرورة في أفعال الطبيعة، فالحياة الاجتماعية من هذه الناحية طائفة من العادات المتأصلة، تفي بحاجات الجماعة"(٩٣).

فإن الاجتماعية المستترة في داخل كل منا، هي التي تقودنا إلى الاشتراك في العيش مع الآخرين، وتصل هذه المشاركة عن طريقها أحياناً إلى الاعتراف بما يضرّ الفرد، فيتحمل الضرر مقابل العزلة والعيش على الانفراد "فالمجرم في محاولته إخفاء جريمته، حتى يقضي على كل معرفة يمكن أن تتطرق إلى ضمير إنسان، كأنما يحاول أن يبطل الجرم نفسه، وبعد أن يظفر المجرم بإخفاء جريمته عن الناس، لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه، فهو ما زال يعرف أنه مجرم، ومعرفته تنأى به عن المجتمع شيئاً فشيئاً، بعد أن كان يرجو أن يظل فيه بمحوه آثار الجريمة.

إنه يعرف أن الاحترام الذي يوجه إليه الآن، إنما هو يوجه إلى شخصه السابق، الذي لم يعد موجوداً، ويعرف أن المجتمع لا يخاطبه هو، بل يخاطب شخصاً آخر غيره، إنه يعرف منه فيعيش بين الناس، وهو أكثر عُزْلَة مما لو كان يحيا في جزيرة خالية، لأنه في عزلته يحمل معه صورة المجتمع التي تحف به وتسنده.

أما الآن فقد انقطع عن المجتمع، وعن صورته معا، حتى إذا قدر له أن يعترف بجريمته عاد إلى حظيرة المجتمع، وعُومل عندئذٍ بما يستحق أن يعامل به، واتجه الناس إليه هو نفسه، لا إلى شخص آخر غيره، وهكذا يستأنف تعاونه مع الآخرين"(٩٤).

٩٢- انظر: المصدر السابق، ص١٣٠- ١٣٣.

٩٣- المصدر السابق، ص١٤وانظر: ص ١٠٥.

٩٤- المصدر السابق، ص٢٢- ٢٣وانظر: ص٢٠.

ويكافئ المجتمع فرده المذنب بالتضامن والاحتواء لما ارتكبه، وتصل هذه المكافأة الرابطة بين المجتمع والفرد إلى حد شعور المجتمع نفسه بذنب فرده، وكأنه شارك في ارتكابه. "إن فكرة المسؤولية الفردية ليست على ما يظن من البساطة، إنها تتضمن تصوراً لفعالية الفرد مجرداً بعض التجريد، ونحن لا نعتبرها مستقلة إلا لأننا عزلناها عن الفعالية الاجتماعية، والواقع أن التضامن الاجتماعي بين أعضاء الجماعة، كان من القوة في أول الأمر بحيث كان الجميع يشعرون أنهم مشاركون إلى حد ما، في ذنب الفرد الواحد"(٩٥). خوفا من أن تصيب عدواه جميع أعضاء المجتمع.

مناقشة فكرة الحياة الاجتماعية:

ما قاله برجسون من تأنيب الضمير عند ارتكاب المخالفة، قائم في الفرد لا محالة، ويقدم الإسلام إلى مثل هذا الفرد المذنب طرق الخلاص وإعادة الثقة إلى "أنا" الجريحة، في صورة:

أ ـ التوبة إلى الله والرجوع إليه بالشروط المعتبرة، لأن التوبة تجبّ ما قبلها.

ب ـ إقامة العقوبة الشرعية حدية كانت أو تعزيرية، فإنها ترفع عنه اللوم الداخلي.

ت ـ العفو من صاحب الحق المجني عليه، وقد حثّ الإسلام على ذلك.

فكل ذلك كفيل بإزالة اللوم الداخلي، ورفع العزلة عنه، وإعادته إلى لُحْمَةِ المجتمع.

الصفة الثانية للإنسان (العقل):

توقف تطور الحياة في رأي برجسون بوصوله إلى الجسم البشري، وعوضت الطبيعة التطور بإيداع العقل في الإنسان، فحل محل التطور، فارتقى بالفكر الإنساني فصنع المعجزات الآلية، التي تسهل مهام حياته، إلا أن رؤيته لمن حوله ممن خرمهم الموت ينال من عزمه، وبذلك تدخل حركة الحياة في البطء الملموس، "فإذا رأى كل من حوله يصير إلى الموت أيقن أنه هو أيضاً ميت، إن الطبيعة حين وهبت له العقل قد أدت به إلى هذا اليقين شاء أم أبى، وهذا اليقين يعرقل سير الحياة، فلئن كانت وثبة الحياة قد صرفت سائر الكائنات الحية عن تصور الموت، فإن فكرة الموت لا بد أن تبطئ حركة الحياة"(٩٦).

والعقل في نظر برجسون: "ملكة يستخدمها الإنسان في التخلص من صعوبات الحياة"(٩٧) وإن عمله لا ينحصر في الفرد فتحقق له أنانيته، فلا ينظر إلى المجموع، بل إن عمله وإن كان في البداية

٩٥- المصدر السابق، ص ١٣٥ - ١٣٦.

٩٦- المصدر السابق، ص١٤٢ - ١٤٣.

٩٧- المصدر السابق، ص١٠١.

لمصلحة الفرد، إلا أنه لا يستطيع التخلص من تحقيق مصلحة المجتمع الذي يضغط عليه، على الرغم من عدم مشاهدته لذلك الضاغط[٩٨].

التلخيص:

يمكن تلخيص ما قاله برجسون تجاه العقل في أربعة نقاط:

١- توقف تطور الحياة لتحقق بغيته في الإنسان.

٢- العقل يصنع الآلات التي تسهل مهام الحياة.

٣- وجود الموت يبطئ حركة سير الحياة.

٤- ملكة العقل ينحصر عملها في تحقيق المصلحة الفردية أولاً، إلا أن المصالح الاجتماعية تجبره على الرضوخ لتحقيقها كذلك.

مناقشة الصفة الثانية للإنسان:

أولاً: عند النظر في النقطة الأولى، نجد برجسون يجزم للقارئ أن التطور قد توقف، فلا داعي إلى البحث في سيره اللاحق، بل اقطعوا الأمل وارضوا بما قلت، ولا تلحقوا المستجدات القادمة بالتطور.

ولا شك أن قبول مثل هذا الجزم يقود الإنسان إلى ترك الملاحظة الدقيقة التي هي نواة الإبداع، وإجراء التجارب لتحسين المنتوجات الحيوية وغيرها، لذا لم يمتثل له أحد في الغرب في مسيرة التقدم المادي.

فها هي التحسينات الزراعية والحيوانية قائمة على قدم وساق، فالمنتوجات الزراعية ربما لَحِقَها التطور أكثر من غيرها، فوجود البيوت المحمية، وتطوير بذورٍ تعطي ثمارها مرتين في السنة، بعد أن كانت حولية الثمار، خير دليلٍ على ذلك.

أما التحسينات الحيوانية فالتطور فيها واضح، في ظهور سلالات من البقر، فيها وفرة اللحم ووفرة الحليب، وشدة المقاومة للأمراض، أكثر مما سبقها من هذه السلالات، كل ذلك خير دليل على رقي الحياة وتطورها إلى الأفضل والأمثل، وإنه ماضٍ على قدمٍ وساق، ولم يتوقف ومضة من ومضات الزمن.

ثانياً: وعند النظر في النقطة الثانية من أن العقل يصنع الآلات التي تسهل مهام الحياة، فأمر مشاهد ملموس، ولكن الفضل لا يعود الى العقل، بل إلى خالق العقل، وهو الله سبحانه جل وعلا، فهو

٩٨- انظر: المصدر السابق، ص١٠١.

الذي وهب العقل هذه القدرات الخارقة، التي لم يكن في مقدور الإنسان القديم تصورَها فضلاً عن أن تكون مشاهدة تؤدي العمل.

ولربما فاقت الآلةُ الإنسانَ بجميع قواه في الأداء وضخامة الإنتاج، إلا أنها تظل في حاجة إلى العقل الذي يحمله الإنسان، فيظل صاحبه أغلى قيمة من الآلة في كل الأحوال، وذلك هو التكريم الربّاني الذي جعله يتحكّم في من هو أعظم منه، وإلى ذلك لَفَتَ ربنا أنظارَ البشر أجمعين ليشكروه على ما أنعم عليهم به من القوى المتعددة، منها قوى العقل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٩٩).

ثالثاً: وعند النظر في النقطة الثالثة من أن مشاهدة الأموات تبطئ حركة سير الحياة، فهي قضية لا يختلف فيها اثنان، فالموت نذير البطء، فمتى أيقن الإنسان أنه ميت تقاعس عن الإنتاج والعمل.

وقد عالجت الفطرة الجزء الأكبر من هذا التباطؤ، فقد فطر الله الإنسان على النسيان، فمنذ وجود أول إنسان على وجه الأرض والنسيان يسري فيه، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١٠٠).

ولولا عمل النسيان في الجسم البشري ما وجد المرء لحظة راحة في حياته، تصور إنساناً استطاع الكشف عن أحداث مستقبله، وفيها أنه سيموت في سِن الستين بحادث سيارة تهشم عظامه، فلولا النسيان لم يستطع العيش لحظة مريحة طوال حياته، فالنسيان من أعظم نعم الله التي تمحو من الذاكرة اللحظات الصعبة.

أضف إلى ذلك أن شرع الله الأخير دعم الحثَ على العمل، رغم يقين البشر بالموت، فأَمَرَ بإنتاج العمل حتى في ساعة الإشراف على مفارقة الحياة، ويقين المرء أنه لن يستفيد من هذا الجهد الذي يقوم به الآن، فقد صحّ من قوله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل"(١٠١).

رابعاً: وعند النظر في النقطة الرابعة من أن العقل يحصر سعيه في تحقيق المصلحة الفردية، وأن المصالح الاجتماعية لا تتحقق عن طريقه إلا بالإكراه والجبر فإن إطلاق الحكم بهذه العموميات أمر فيه

٩٩- سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

١٠٠- سورة طه، الآية: ١١٥.

١٠١- **مسند الإمام أحمد**، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ، ج ٣، ص ١٨٤، ١٩١.

نظر، فإن العقول البشرية تتجه اتجاهين:

١- اتجاه تحقيق المصلحة الفردية.

٢- اتجاه تحقيق المصلحة الجماعية، وتفضيلها على المصلحة الفردية.

فالعقول الأولى برغم أنانيتها لا تستطيع حصر المصلحة في نفسها، دون أن يشترك معها غيرها، فشراء اللباس مثلاً يحقق المصلحة الفردية للشخص في النظر القريب، إلا أن ذلك يحقق مصلحة غيره أيضاً، فالبائع حقق من البيع مصلحته، وطلبه لمثيل اللباس المُبَاع يحقق مصلحة الصانع، وطلب الصانع قماشاً لصنع المثيل يحقق مصلحة مصنع النسيج، وهكذا دواليك.

فالمصلحة الفردية البحتة شيء خيالي يمكن تصوره في عالم العقل، لا عالم الواقع، فالأنانية الصِرفة لا وجود لها، وكل الذي يمكن رؤيته في المصلحة الفردية أن صاحبَها يستطيع تقديمها على مصلحة غيره فحسب.

وشرع الله الأخير يحثّ المسلمين على تبني مصلحة الشخص ذاته، ومصلحة أخيه المسلم معاً، دون فارق زمني على الإطلاق، بل ربط ذلك بالإيمان وجوداً وسلباً "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"(١٠٢). بل جاء مدح القرآن للمسلم المُؤثِر على نفسه، وتقديم احتياجات غيره على احتياجاته، وأنه المبدأ الأمثل لخير البشر: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١٠٣).

وخلاصة القول: إن العقل يدرك الصالح والضار من أمور الحياة، ومجالاتُ عملهِ العالم المادي المحسوس، عالم السنن الكونية الإلهية، فيستخرج مكنونَها، ويربط بين عللها وأسبابها، ومقدماتها ونتائجها، ومن ثم تستمر عجلة التقدم البشري إلى الأمام، ومتى خاض في غير هذا المجال كبا وتعثر، وكلف صاحبه فوق طاقته، فيكون نصيبه الضعف والتيه.

الخاتمة والنتائج:

لكل جهد ثمرة ونتيجة، يصل إليها صاحب الجهد، وقد توصلت في جهدي هذا إلى النتائج التالية:

١٠٢- **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، مطبوع مع **فتح الباري**، ج ١، ص ٥٦.

١٠٣- سورة الحشر، الآية: ٩.

١- للتوجيه أثر ملموس، يبدأ الإنسان في اكتسابه منذ صباه ويستمر حتى الممات، وإن الأم والأب والمدرسة ومكان العمل من المُوَجهات الأساسية في الحياة.

٢- وُلِد برجسون وترعرع وشب وشاخ في عصر استقرّ فيه إنكار وجود الله لدى العلماءالمكتشفين للسنن الكونية، وأن جهوده كلها تصب في مساندة هذا الاستقرار.

٣- حصر برجسون مصادر المعرفة في التجربة والمعمل، وقاده ذلك إلى التعرّف على أحد الرافدَين اللذَين يُكسِبان الإنسان المعرفة، وإنكاره للرافد الثاني ـ الوحي ـ حَرَمه من الصنو الأحصن في تقديم المعرفة، والإنسان الأمثل هو الذي يجمع بين الرافدين لتستقيم حياته، وتكتمل مصادر معرفته.

٤- نظرية دوام الحياة التي قدّمها برجسون محاولة يائسة لإقناع الناس بأن الحياة الدنيا هي الأولى وهي الأخيرة.

٥- نظرية نشوء الحياة وتطورها عبر المراحل الثلاث وَهْمٌ أنشأه الخيال البرجسوني، لا يستند إلى دليلٍ معملي، أو دليل من الوحي المنزّل من عند الله عزوجل.

٦- علم المُوَرِّثات (الجينات) يدحض افتراء التطور في الإنسان والكائنات الحية، ولو عاش برجسون إلى عصرنا الحالي، وشاهد المعلومات المتاحة في علم الوراثة لأنكر على نفسه، ولرجع عن كثير من أفكاره.

٧- قد توقف التطور في رأي برجسون بوصوله إلى الإنسان، وإن العقل البشري حل محله، فلا حاجة إلى إحداث أنواعٍ جديدة من الحياة، بل العقل البشري يقدم المعجزات عن طريق المصنوعات التي تخدم الإنسان فلا حاجة إلى شيء سوى العقل.

والحق أن العقل البشري منحة إلهية، قادر على تقديم المفيد والضار إلى البشر، وإن الوحي هو صمام الأمان لهذه الآلة، وإن محل عملها هو المخلوقات، ومتى ترك هذه الدائرة وعَمِل في الغيبيات قاد صاحبه إلى الضلال، فَلْيُحَصِّن الإنسان عقله بأوامر الوحي إيجاباً وسلبا.

****